المحاضرة الثامنة:

من أعلام الأدب الصوفي الجزائري:

مقدمة:

في حديثنا عن نشأة الشعر الصوفي الجزائري وردت معنا أسماء عديدة من الأعلام الذين كان لهم دور في نشأة هذا الشعر، حيث اصطبغ الشعر الجزائري القديم بالصبغة الصوفية الدينية ، فكان بذالك للشاعر الجزائري تلك اللمسة الروحانية الدينية.

وإلى جانب المسهمين الأوائل في نشأة هذا الشعر، تشهد القرون الموالية بروز أعداد كبيرة من الشعراء الذين أبدعوا في هذا المجال، وكتب التراجم الكثيرة شاهدة على ذلك، نشير إلى بعض هذه الكتب التي تزخر بها المكتبة التراثية الجزائرية، والتي تكشف عن مادة أدبية قيمة ما تزال لم تلق العناية الكافية من قبل الدارسين، من هذه المصادر:

_ تعريف الخلق برجال السلف " للحفناوي "

_ التشوف إلى رجال التصوف" لابن الزيات

_ بغية الرواد " ليحي بن خلدون

_ نفح الطيب " للمقري

_ عنوان الدراية " للغبريني

_ الأدب العربي الجزائري عبر النصوص أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر" لمحمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن حمدان

_ أعلام الفكرو الثقافة في الجزائر المحروسة" ليحي بوعزبز،

_ أعلام الفكر و التصوف بالجزائر" لعبد القادر بوعرفة الهلالي،

وغيرها إلى جانب مجموعة من الدواوين لأبرز رواد الشعر الديني من زهد وتصوف ومديح نبوي

أولا/ أبو مدين شعيب التلمساني:

1- نشأته وأهم مؤلفاته:

أبو مدين شعيب بن الحسين التلمساني المولود قريبا من سنة 509هـ، أحد الأعلام البارزين وقد ذاع صيته وكان له أثر كبير في الحركة الصوفية في المشرق والمغربي العربي، ثم أن وفاته كانت على الأرجح سنة 594هـ، أي قريبا جدا من القرن السابع الهجري، وقد ورد اسمه ضمن أغلب كتب التراجم.

أبو مدين شعيب دفين العباد في تلمسان ضريحه بها مشهور مزار، له إنتاج غزير:

_ ديوان شعر بعنوان (المنن الربانية الوهبية في المآثر الغوثية الشعيبية)، إلى جانب عديد القصائد وكذا الآثار العلمية، ومعروف عنه أنه بارع في الشعر وقول الحكمة." وصفاته الخلقية كلها صفات جليلة قلما تتوفر في خواص الخليقة، ومنها إيثار الحق على النفس، والالتزام بميزان الشرع ، الغيرة على حرمة الدين ومقدساته"[1].

2- نماذج من أدبه الصوفي:

إن أبا مدين شعيب من أقطاب التصوف البارزين ومن شعره

بكَـت السـحاب فَأضـحكَتْ لبكائِهـا زهـر الريـاضِ وفَاضـت الأنْهـار

وقَـد أَقْبلَـتْ شَـمس النَّهـارِ بِحلَّـة خُضـرا وفـي أسـرارِها أسـرار

وأَتَـى الربِيـع بِخَليـه وجنُـوده فَتَمتَّعـتْ فـي حسـنه الأبصـار

والـورد نَـادى بِـالورود وبِـالجنَى فَتَسـابقَ الأَطْيَـار والأَشْـجار

والكَـأْس تَـرقُص والعقَـار تَشَعشَـعتْ و الجـو يضـحك والحبِيـب يـزار

والعُـود لِلُغيـد الحسـانِ مجـاوِب والطَّـار أَخْفَـى صـوتَه المزمـار

لاَ تحسـب الزمـر الحـرام مرادنـا مِزمارنَـا التَّسـبِيح والأذْكَـار

وشَـرابنَا مـن لُطْفـه وغنَاؤُنَـا نعـم الحبِيـب الواحـد القَهـار

نفحات صوفية يستشعرها المتأمل، وقد صيغت الأبيات بكلمات عذبة تأخذنا إلى عالم الجمال وكأننا نجول في حديقة غنَّاء، لنقف في الأخير عند حقيقة تجلت واضحة وهي افتتان الشاعر بالجمال المطلق للذات الإلهية.

من شعره في الحب الإلهي:

فَـاح النَّـدي بِمنطقـي فَتَنَـازعوا أَبِإِسـحلٍ أسـتَاك أم بِـآراك

هيهـــاتَ عهـــدي بالســـواك و إنَّمـــا شَـــفَةُ الحبِيـــبِ جعلْتُهـــا ســـواكي
و يظُـــن مـــن ســـمع الحـــديثَ بِأَنَّـــه حـــــقٌّ حـــــلاَ ومـــــدبر الأفْـــــلاَك
رؤْيـــا رأَيـــتُ و إن مـــن أحببتـــه لمنـــــزه عـــــن مهنَـــــة الإدراك

يقدم الشاعر صورة من الغزل الذي يبدو صريحا للوهلة الأولى، لكن سرعان ما يربط هذه الصورة بالخالق المنزه عن الإدراك، فهي صورة للعشق الإلهي الذي يعبر عنه الشاعر رمزا.

ويقول في السكر الصوفي:

أدرهـــا لنـــا صـــرفًا ودع مزجهـــا عنَّـــا فَـــنَحن أُنَـــاس لا نَـــرى المـــزج مـــذْكُنَّا
و غَـن لَنَـا فَالوقْـتُ قَـد طَـاب بِاسـمها لأنَّـــا بِهـــا قَـــد رحلْنَـــا بِهـــا عنَّـــا
عرفْنَـا بِهـا كُـلَّ الوجـود و لَـم نَـزلْ إلـى أن بِهـــا كُـــلَّ المعـــارِف أنْكَرنَـــا
هي الخمـر لَـم تُعـرفْ بِكَـرمٍ يخُصـها ولـم يجعلهـا راح ولـم تَعـرِفْ الـدنَّا

ويقول في الفناء الذي يحضر في موضوعات الشعر الصوفي كثيرا ، ذلك أن أساس التصوف الحب الذي هو في الحقيقة فناء في المحبوب الأكبر، والشعر الجزائري الصوفي– و إن غلب عليه الاتجاه السني– لم تغب عنه هذه المصطلحات المعبرة عن الأفكار الفلسفية، ومن ذلك قول أبي مدين شعيب من بحر الكامل

فَالعـــارِفُون فَنَـــوا و لَمـــا يشْـــهدوا شَـــيئًا ســـوى المتَكَبـــرِ المتَعـــالِي
ورأَوا ســـواه علـــى الحقيقَـــة هالِكًـــا فـــي الحـــال والماضـــي والاســـتقبالِ

أما عن الشهود ووحدة الوجود فيقول:

فَـإِذَا نَظَـرتَ بِعـينِ عقْلـك لَـم تَجِـد شَـيئًا سـواه علَـى الـذَّوات مصـورا
وإِذَا طَلَبـــتَ حقيقَـــةً مـــن غَيـــرِه فَبِلَيـــلِ جهلـــك لاَ تَـــزالُ معثَّـــرا

و يقول من (الكامل) دائما:

الله ربِـــــي لا أُرِيـــــد ســـــواه هـــلْ فـــي الوجـــود الحـــي إلاَّ االله
ذَاتُ الإلـــه بِهـــا قـــوام ذَواتنَـــا هـــلْ كَـــان يوجـــد غَيـــره لَـــولاَه

و يتراءى لنا بوضوح تعبير أبي مدين عن وحدة الوجود، رغم ما يلاحظ من تداخل بين معاني وحدة الوجود والشهود و الوحدة المطلقة.

المصادر والمراجع (الاحالات):

[1] محمد الطاهر علاوي ، العلم الرباني سيدي أبو مدين شعيب عصره – حياته – آثاره، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، برج الكيفان، الجزائر، ط 1، 2004، ص: 31.